مظاهر التقاء الحضارتين المصرية والإغريقية
فى عهد البطالمة

يرجع أول عهد مصر باستقرار الإغريق فيها إلى ما قبل الفتح المقدونى بحوالى أربعة قرون ، أو بعبارة أخرى إلى حوالى بداية القرن السابع قبل الميلاد ، عند ما أخذ الكثير من تجارهم يستقرون فى شمال مصر(١) . وإذا كانت مصر قد أفادت عندئذ من نشاط الإغريق التجارى وقوة سواعدهم فى جمع ثروة كبيرة وبناء جيش قوى ، مما حدا بفراعنة العصر الصاوى إلى الترحيب بهم وموالاة النعم عليهم(٢) ، فإن الإغريق قد جنوا عندئذ من مصر خير الثمرات ، إذ أنهم لم يجمعوا ثروات طائلة فحسب ، بل أفادوا كثيراً من الحضارة المصرية(٣) . حقا كان العصر الذهبى لحضارة الفراعنة قد ولى وانقضى ، لكن العصر الصاوى كان عصر نهضة رائعة تهدف إلى إحياء تقاليد الماضى المجيد . وفى أثناء تلك النهضة المصرية الزاهرة كانت بلاد الإغريق لا تزال فى مهد الحضارة ، فلا عجب إذن أنه كان للحضارة المصرية أثر مشهود فى صناعات الإغريق وعلومهم وفنونهم ، وآية ذلك أنهم كانوا يحجون إلى مصر لتلقى العلم فيها .

وبين أواخر القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل مولد السيد المسيح كان الفلك قد دار دورة من دوراته العجيبة ، إذ حين عجزت مصر ، وقد هد المشيب قواها ، عن صد عدوان الفرس عليها ، تمكنت بلاد الإغريق فى فتوتها وشبابها من الصمود أمام الفرس . ولذلك فإنه بينما دخلت مصر فى حظيرة الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ نجم الحضارة المصرية فى الأفول ، احتفظ الإغريق باستقلالهم ، وكان لنجاحهم فى صد عدوان الفرس عليهم رد فعل

---

(١) راجع موسوعة كمبردج فى التاريخ القديم ، المجلد الثالث ، ص٢٩١ .

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ص ٢ — ٣ .

(٣) انظر Diod. I, 96-8.

عجيب فى نفوسهم قفز بحضارتهم إلى ذروة المجد فى أقصر فترة عرفها التاريخ .

ويوم قُسِّمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر بين قواده عام ٣٢٣ ق . م ، وآلت مصر إلى أحد هؤلاء القواد ، وأعنى بطلميوس بن لاجوس ، الذى أقام على ضفاف النيل صرح مملكة حمل سلالته من بعده صولجانها قرابة ثلاثة قرون ، كان لواء الزعامة فى عالم البحر الأبيض المتوسط معقوداً دون منازعة للحضارة الإغريقية ، فإنه منذ قرنين على الأقل كان العالم المتحضر يدين للمدن الإغريقية بالغالبية العظمى من كل المبتكرات الخصيبة فى حلبة الأفكار والفنون والصناعات(١) .

فما كانت نتيجة التقاء هذه الحضارة الإغريقية اليافعة ، حضارة السادة الفاتحين ، مع الحضارة المصرية الهرمة ، حضارة الرعايا المغلوبين على أمرهم ، فى وادى النيل ؟ وهل كان العلامة ابن خلدون صادقاً فى رأيه القائل إن المغلوب مولع دائما أبدا بالاقتداء بالغالب » هذا ما سنحاول إظهاره الآن فى إيجاز .

لقد كان البطالمة قبل كل شىء ملوكاً يعنيهم توطيد دعائم حكمهم بأفضل السبل التى تحقق أهدافهم ، غير أنهم كانوا ملوكاً مصطبغين بالحضارة الإغريقية ، وفى حاجة ملحة إلى الإغريق . فقد كانت أعز أمانى البطالمة الأوائل المحافظة على استقلال مصر السياسى والاقتصادى ولعب الدور الأول فى السياسة الدولية(٢) . وقد كانت الدعامة الأولى للاستقلال والسيادة الدولية تجنيد جيش قوى وبناء أسطول كبير ، من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، التى كانت مؤلفة من خيرة محاربى العصر ، وأعنى المقدونيين والإغريق الذين أثبتت حملات الإسكندر تفوقهم على محاربين ممتازين كالفرس . وقد كانت وفرة المال الدعامة الثانية للاستقلال والسيادة الدولية ، ومصر على غنى مواردها الطبيعية كانت لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة إذا بقيت شئونها الإدارية وحالتها الاقتصادية ونظمها المالية على ما كانت عليه عند الفتح المقدونى ، ولا سيما بسبب ما حاق

---

(١) Jouguet : Hist. Nat. Eg., III, pp. 15-16.

(٢) راجع إبراهيم نصحى : الكتاب سالف الذكر ، ص ٥٢ ، وكذلك

(Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 29;)

بها من التدهور نتيجة للاضطرابات التى شهدتها البلاد فى خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، إبان حكم الفرس فى مصر وثورات المصريين للتخلص من نيرهم . فلم يكن هناك بد من إعادة تنظيم شئون الإدارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية ، ووضع نظام مالى دقيق . وللقيام بهذه الأعمال الإنشائية الواسعة ، كان البطالمة فى حاجة إلى رءوس أموال ، وإلى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى فى خدمتهم(١) . وجملة القول أن البطالمة كانوا فى حاجة ملحة إلى الاغريق من أجل تحقيق أغراضهم الداخلية والخارجية ، فلكى يضمنوا لأنفسهم مكانة ممتازة فى بلاد الإغريق ، وكذلك استمرار وفود الإغريق على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام ، لم يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريعها للإغريق ، بل أجزلوا لهم العطاء ومنحوهم مركزاً ممتازاً فى وطنهم الجديد ، وهيئوا لهم البيئة التى تواءم ما ألفوه من أساليب الحياة فى بلادهم ، ونصبوا أنفسهم حماة للحضارة الإغريقية ، فهرع الإغريق إلى مصر زرافات ووحداناً(٢) .

وإذا كانت قد وفدت على ضفاف النيل فئة كبيرة من الأجانب ، فإن هؤلاء الأجانب كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى أهل البلاد الذين كانوا يعدون بالملايين ، فى حين كان الأجانب يعدون بالآلاف . ومهما بلغت حاجة البطالمة إلى الأجانب ، فإنه لم يكن لهم غناء على الإطلاق عن المصريين الذين كانوا عماد ثروة البلاد .

وهكذا نرى أن البطالمة قد وجدوا أمامهم فريقين رئيسيين من سكان البلاد ، لكل منهما نظم خاصة للحكم ؛ فالإغريق نشأوا فى مدن اعتادوا على الاشتراك فى حكمها ، والمصريون نشأوا فى دولة ملكية مطلقة تقوم على حق الملوك الإلهى . فماذا فعل البطالمة حماة الحضارة الإغريقية الذين كانوا يحرصون على أن تظهر دولتهم أمام العالم باعتبارها دولة إغريقية ، لا دولة شرقية(٣) ؟ حقاً إنهم سمحوا للمدن الاغريقية الثلاث فى مصر بلون من ألوان الحكم الذاتى ، لكن إغريق هذه المدن ، وكذلك الإغريق الذين

---

(١) إبراهيم نصحى الكتاب سالف الذكر ، ص ٧٢٤ .

(٢) Jouguet: in Chronique d'Egypte, 1935, pp. 95-6.

(٣) Rostovtzeff : op.cit., pp. 264-5.

يعيشون فى أنحاء مصر الأخرى كان شأنهم شأن المصريين فى خضوعهم جميعاً للملك(١) . هذا إلى أن البطالمة لم يكثروا من إنشاء المدن الإغريقية، على نحو ما فعل الإسكندر وخلفاؤه السليوكيون فى إمبراطوريتهم ، بل إن البطالمة لم ينشئوا إلا مدينة إغريقية واحدة وهى بطوليس ، لكنهم ساهموا فى إنشاء الإسكندرية ؛ أما نقراطيس فإنها ترجع إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين . وقد يقال إنّ البطالمة وإن كانت حضارتهم هى الإغريقية فإنهم أصلا مقدونيون ، ومن ثم لا داعى لأن نعزو إلى مصر نظام الحكم الذى اتبعوه فيها ، فقد كان يحكم مقدونيا ملوك مطلقو السلطة . ولكن هذا الدفع ، كما يقول رجال القانون ، وإن كان مقبولا شكلا فهو مرفوض موضوعا ، لأن البطالمة أقاموا ملكيتهم على أساس إلهى ، وفى مصر نشأت فكرة حق الملوك الإلهى منذ أقدم العصور(٢) . وفضلا عن ذلك فإن البطالمة اتخذوا أولا صفات الفراعنة ، ولم يلبثوا أن تتوجوا على نمطهم فى المعابد المصرية(٣) . ولكى يبرروا سلطتهم المطلقة فى نظر رعاياهم الإغريق لم يكتفوا فقط بنشر الرسائل الفلسفية التى تمتدح سلطة الملوك ، بل رفعوا أنفسهم إلى مصاف الآلهة الإغريقية(٤) . ومعنى ذلك أن البطالمة لم ينشروا بين المصريين نظم الحكم الاغريقية ، بل اقتصدوا أيما اقتصاد فى إقامة هذه النظم بين إغريق مصر ، وأخذوا عن المصريين الأساس الذى أقاموا عليه دعائم سلطتهم الملكية .

وفى الإدارة المحلية ، احتفظ البطالمة بالنظام التقليدى الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور ، نظام تقسيم البلاد إلى مصر العليا ومصر السفلى ، وتقسيم كل من هذين القسمين إلى أقاليم أو مديريات(٥) . وفضلا عن ذلك فقد كان دعامة الإصلاحات الاقتصادية والمالية التى قام بها البطالمة مبدآن مصريان ينافيان المبادىء التى كانت تقوم عليها المدن الإغريقية الحرة . وهذان المبدآن هما : — أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما فى

---

(١) Rostovtzeff : op. cit., p. 323.

(٢) Jouguet : Macedonian Imp., p. 286; Moret and Davy, From Tribe to Empire, pp. 131 ff.; Moret: Du caractère religieux de la royauté pharaonique, p. 17.

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ١٨٦ — ١٩١ (٤) إبراهيم نصحى ، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٥) Jouguet : op. cit., p. 300.

باطنها ، وأن الأهالى يطيعون هذا الملك الإله طاعة عمياء . وعلى الرغم من أن نظم البطالمة الاقتصادية والمالية قد قامت على هذين المبدأين المصريين ، فإن البطالمة قد تأثروا إلى حد بعيد فى وضع هذه النظم بتعاليمهم الإغريقية وبتجارب أعوانهم الإغريق ؛ ولذلك فإن هذه النظم وإن كانت مصرية فى جوهرها فإنها مصطبغة بصبغة إغريقية قوية . ولا أدل على الأثر الإغريقى من تنظيم النواحى الاقتصادية المختلفة بقوانين ونظم إغريقية فى روحها ومنطقها ، واتساقها ودقة صياغتها واصطلاحاتها ، ومن طريقة تنظيم الضرائب . وقد كان يتصف بروح إغريقية أيضاً إشراف الإدارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وكذلك نظام المحاسبة والمراجعة الذى يختلف كلية عن أى شىء من هذا القبيل عرفته مصر حتى ذلك الوقت . ومع ذلك فقد أغفلت نظم البطالمة الاقتصادية والمالية إغفالا يكاد يكون تاماً جوهر النظام الاقتصادى الإغريقى ، ويتلخص فى شيئين : — أحدهما الامتلاك الخاص الذى كانت الدولة تعترف به وتحميه ، باعتباره أساس حياة الجماعة ، والآخر هو حرية النشاط الاقتصادى ، إذ أن الدولة قلما كانت تتدخل فى ذلك . حقاً إن البطالمة لم يقضوا قضاء مبرما على هاتين الظاهرتين ، إلا أنهم لم يسمحوا لهما إلا بقدر محدود يتمشى مع خطة البطالمة العامة ، التى كان سداها ولحمتها إشراف الدولة إشرافاً دقيقاً على كافة نواحى الحياة الاقتصادية(١) .

وجملة القول إن أداة البطالمة الحكومية وإن كانت فى جوهرها من تراث الماضى ، إلا أنها أصبحت فى مجموعها أداة إغريقية منظمة تنظيما دقيقاً . ولا نعرف كيف استطاع البطالمة تكوين هذه الأداة الحكومية الدقيقة فى بلد أجنبى ، ووسط ظروف غريبة من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . فإن رءوس هذه الإدارة ومديرى مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة كانوا كلهم تقريباً من الإغريق الذين لم يعدّهم ماضيهم للإضطلاع بمثل هذه المهام المعقدة ، إذ أنهم قبل ذلك كانوا يديرون شئونهم الخاصة بطريقة بدائية ، كما أن إدارة الشئون العامة التى اشترك فيها بعض هؤلاء المهاجرين فى بلادهم كانت أولية ، إذا قيست بالنظم

(١) Rotovtzeff : op. cit., pp .272-3.

البطلمية . إن نجاح البطالمة فى إعادة تنظيم الأداة الحكومية لتحقيق أهدافهم يعتبر من أبدع مبتكرات العبقرية الإغريقية ، ومن أوضح الأدلة على مرونتها واستعدادها لتكييف نفسها وفقاً للظروف التى توجد فيها[١] . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد أنه لم يكن لهذه التعديلات التى أدخلت على الأداة الحكومية والنظم المالية إلا أسوأ الأثر فى المصريين ، إذ أن البطالمة لم يستهدفوا إلا تحقيق أغراضهم الأنانية الخاصة . ولم تؤد النظم الجديدة بعسفها وبطشها إلى سوء حال المصريين المادية فحسب ، بل إلى انحطاط أخلاقهم أيضاً ؛ فقد دفعهم الظلم إلى التحايل على القانون بشتى الطرق ، كما دفعهم الفقر وشظف العيش إلى وأد أطفالهم . وهكذا كانت للظلم آثار مادية ومعنوية سواء بسواء[١] .

وحين وجه البطالمة عنايتهم إلى النهوض بمرافق مصر الاقتصادية لم يعتمدوا على خبرة المصريين المتوارثة فحسب ، بل اعتمدوا أيضا على دراية الإغريق الفنية والحركة العلمية الإغريقية ، إذ أن المهندسين الإغريق هم الذين أشرفوا على استصلاح مساحات واسعة من الأراضى فى الفيوم[٣] ، وغيره من الأقاليم[٤] التى تشبهه ، وبوجه خاص فى الدلتا . وبعد أن كان المصريون لا يعرفون إلا الشادوف لرفع المياه إلى الأراضى المرتفعة ، أصبحوا يعرفون الساقية ولولب أرخميدس[٥] (الطنبور) ؛ وكانت هاتان الآلتان من ثمرة العلم الإغريقى . ولتفادى إضعاف التربة وضع نظام دقيق للدورة الزراعية ، بحيث كانت الأرض لا تزرع زراعة ثقيلة ثلاثة أعوام متتابعة ، ولا تترك فى نفس الوقت دون زرع[٦] ؛ وأصبحت أغلب الأدوات الزراعية تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد[٧] . وللإغريق فضل كبير فى نشر غرس الكروم والفاكهة والزيتون ، وإدخال أنواع

---

(١) Rostovtzeff, op. cit. : pp. 1078-81.

(٢) إبراهيم نصحى ، ص ص ٥٨٦ ، ٦٥٠ — ٦٥٧ ، ٧٥٨ — ٧٦٣ .

(٣) Rostovtzeff : op. cit., p. 361.

(٤) Edgar : Zeno Papyri in Michigan, p. 10.

(٥) Calderini : in Aegyptus, I, pp. 37-62, 189-216, 309-317.

(٦) P. Tebt.I : p. 561.

(٧) Rostovtzeff : op. cit., pp. 362-3.

جديدة منها ومن مختلف أنواع النبات[١] . وقد وجه البطالمة عنايتهم إلى مسألة أخرى تتصل بالزراعة اتصالا وثيقاً ، وهى تربية الحيوان ، فلم يعنوا فقط بالحيوانات التى كان المصريون يألفونها منذ القدم ، بل عنوا أيضاً بأقلمة ما كان مألوفاً منها عند الإغريق ، وخاصة الحيوانات ذات الأصواف الممتازة [٢].

وتعزى النهضة الصناعية فى عصر البطالمة إلى مهارة أهل البلاد ، وكذلك إلى مواهب المهاجرين إليها . ولا بد من أن الحركة العلمية فى الإسكندرية قد غزت الصناعة كما غزت الزراعة بثمرة تقدم العلوم والهندسة . وقد ساعد على ازدهار الصناعة إنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقود ، ووفرة رءوس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، ورواج التجارة ، واهتمام الملوك باستغلال الصناعة استغلالا لم تعرفه مصر فى أى عهد من عهود تاريخها الطويل ؛ فإن ملك مصر لم يكن أكبر ملاك الأراضى فحسب ، بل كان أيضاً أكبر أقطاب الصناعة فيها[٣] . وإذا كان المصريون قد اقتبسوا من الإغريق بعض أساليب الصناعة التى كانوا أساتذة فيها ، كصناعة الزيت والنبيذ والمنسوجات الصوفية ، فإن الإغريق بدورهم اقتبسوا فنون الصناعة التى بلغ فيها المصريون حدا يقرب من الكمال فى عهد الفراعنة . وكان شأن الإغريق فى مصر كشأنهم فى أى مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، فإنهم اقتبسوا أولا فن الصناعة الوطنى وتعلموا كل ما لم يعلموه منه قبل ذلك ، بل أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الإغريقية ، وجعلوه محببا مقبولا للذوق الإغريقى[٤] . فامتلأت أسواق العصر الهيلينستى بآنية فخارية وزجاجية ومعدنية مصنوعة على أساس الأساليب المصرية فى الصناعة ، وإن كان طراز المصنوعات إغريقياً . وهل أدت مساهمة الإغريق فى حياة مصر الاقتصادية إلى إدخال ما ألفوه فى بلادهم من نوع اليد العاملة فى الصناعة ، أى العبيد ، على

---

(١) إبراهيم نصحى ، ص ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

(٢) Rostovtzeff : op. cit., pp. 292-5

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٣٨٣

(٤) Rostovtzeff : Large Estate, p. 135.

الرغم من وفرة اليد العاملة الحرة فى مصر وقلة أجرها ؟ تشير القرائن إلى أنه فى مدن مصر الإغريقية – وخاصة فى الإسكندرية – لم ينهض بالصناعة الإغريقية طبقة كبيرة من أهل الحرف والصناعات الأحرار فحسب ، بل من العبيد أيضاً . أما فى بقية أنحاء مصر ، خارج مدنها الإغريقية – أو على الأقل خارج الإسكندرية – ، فإننا نلاحظ أنه لا يوجد فى نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل فى الزراعة والصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيها . ومعنى هذا أن الإغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد بوجه عام(١) .

وقد تمخض نجاح سياسة البطالمة الخارجية ، وتقدم الزراعة وازدهار الصناعة ، عن رواج تجارة مصر الخارجية . وساعد على ذلك أيضا خبرة الإغريق العريقة فى هذا المضمار ، وإنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقد ، ومبتكرات العبقرية الإغريقية التى كان فى مقدمتها فنار الإسكندرية المشهور الذى كان نوره يشاهد على بعد ٦٠ ك . م ؛ ومنذ أدرك الناس قيمة الفنارات انتشر هذا الاختراع سريعاً فى الموانى المختلفة .

وتمخضت أبحاث تيموستنيس ، أمير البحر البطلمى ، عن كتاب « المعارف البحرية » الذى وفر لربابنة السفن معلومات قيمة عن أحوال الموانى المختلفة وأوصافها ، والمسافة بين كل منها . وقد ترتب على كل هذه التسهيلات أن ازدادت كثيرا فى العصر الهيلينستى سرعة انتقال البضائع ، دون أن تزداد سرعة السفن نفسها زيادة كبيرة ، وذلك لأن السفن أصبحت تشق أواسط البحر بدلا من أن تتلمس طريقها بمحاذاة الشاطىء ، كما أصبحت تسافر فى أثناء الليل أيضاً بدلا من النهار فقط(٢) .

إن البطالمة الأوائل لم يدخروا وسعاً فى العمل على تقدم مرافق مصر الإقتصادية ، فازدادت مساحة الأرض المنزرعة واستغلت الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، وازدهرت الصناعة وراجت التجارة . ولكن إذا كان لم يستفد من ازدياد مساحة الأرض سوى الإغريق ، الذين

---

(١) Préaux : L'économie royale des Lagides, p. 305.

(٢) Glotz : Le travail dans la Grèce ancienne, pp. 440-1.

منحوا هذه الأراضى ، والملك الذى كسب من وراء ذلك ولاء الإغريق وخدماتهم ، فضلا عن الضرائب التى فرضها على هذه الأراضى ؛ وإذا كان الملك هو صاحب أرض مصر ، وكانت الحكومة هى القابضة على ناصية الصناعة ، والإغريق هم أقطاب التجارة والصناعة ، فماذا جنى المصريون أصحاب البلاد وعماد ثروتها ؟ ماذا جنوا من تضاعف مساحة الأرض المنزرعة ، أو ازدياد استغلال الأرض ، أو ازدهار الصناعة ، أو رواج التجارة ؟ لقد كانوا كالشمعة التى تحترق لتنير للغير ، ولم يكن نصيبهم سوى نصيب العبد الكسير الذى يشقى وينصب ليملأ خزائن سيده بالأموال . وهل أدرك البطالمة أنفسهم من وراء سياستهم الاقتصادية ونظمهم المالية كل ما كانوا يؤملون فيه ؟ الجواب نعم ولا . فقد أحرزوا كل ما يقوى المال على ابتياعه ، ولكنهم أغفلوا من حسابهم أمرا لعله كان يسيراً فى نظرهم ، إلا أنه هو العماد الأقوى لكل ملك يراد له البقاء ، وذلك هو الروح المعنوى للشعب . فلا عجب أنه عندما استعاد المصريون ثقتهم بأنفسهم هبوا ثائرين فى وجه طغاتهم ، وزلزلوا الأرض تحت أقدامهم ، فكانت ثوراتهم من العوامل الحاسمة فى القضاء على دولة البطالمة .

ولما كان بطلميوس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والإغريق سويا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، فإنه رأى من الضرورى أن يؤلف بين قلوب هذين العنصرين ، ولا سيما أنه كان يعرف أن للمصريين ديانة موروثة راسخة القدم ، وأن الإغريق أحضروا معهم ديانتهم ومذاهبهم . ولذلك وجه همه إلى التغلب على النفور الدينى الذى كان هرودتوس قد لاحظه من قبل ، وكان من المحتم أن يعوق الألفة بينهم ، بإيجاد ديانة جديدة تربط بين هذين العنصرين المختلفين اللذين كان أهم عنصرين بين سكان البلاد .[1] وقد استقر الرأى على أن تكون محور الديانة الجديدة ثلاثة آلهة مصرية ، قُدّمت للمصريين فى ثوبها المصرى ، وللإغريق فى ثوب إغريقى ، على أنها نظائر لآلهتهم . ولم يعبد الإغريق هذه الآلهة فقط ، بل كانوا يعبدون أيضا الآلهة المصرية تحت أسماء إغريقية وبعضها بأسمائها المصرية ، فقد أدخل على عقولهم

(١) Jouguet: Mac.. Imp., p. 339.

أن تلك الآلهة لا تختلف فى شىء عن آلهتهم . وفضلا عن ذلك ، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ضيوفاً على البلاد ، ولذلك كان من إصالة الرأى أن يستجدوا عطف الآلهة التى تشملها بالرعاية(١) ، إلا أنه حيثما كان الإغريق ينزلون فى كثرة ، سواء أكان ذلك فى المدن الإغريقية أم فى خارجها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم القديمة(٢) ، مثل زيوس وابولو وديمتر . ويكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية للإغريق كانت عبادة آلهتهم القديمة ، التى ظلوا على تمسكهم بها إلى أن تلاشى الروح القومى فى نفوسهم(٣) . وإذا كنا نعرف أن الديانة المصرية قد استهوت الإغريق فأقبلوا عليها — ولو إلى حد — إلى جانب ديانتهم القومية ، فإننا لا نعرف أن المصريين أقبلوا على الديانة الإغريقية على الإطلاق .

وقد سلف القول إن البطالمة الثلاثة الأوائل رأوا سلامتهم فى الاعتماد على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، فى تكوين قواتهم البرية والبحرية(٤) ، لكن هؤلاء الملوك رأوا ألا يسرحوا الفرق المصرية ، خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى إثارة المصريين . ولذلك استبقوها فى جيشهم الإغريقى ، بنظمها وأسلحتها القديمة ، بمثابة فرق احتياطية يلجأ إليها فى أوقات الضرورة القصوى . وقد استمر الحال كذلك حتى أواخر القرن الثالث ، عند ما واجهت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة ، بسبب انقضاض أنطيوخوس الثالث ملك سوريا على ممتلكاته . وكان ذلك فى وقت قل فيه وفود الإغريق على مصر ، وضعفت الروح الحربية بين المقيمين منهم فى مصر ، فاضطر إلى الاعتماد على المصريين فى منازلة أنطيوخوس ، ولذلك كانوا منذ ذلك الوقت يسلحون بالأسلحة المقدونية ، ويدربون وفقاً لأحدث الأساليب الحربية(٥) .

وكانت لمصر عاداتها وقوانينها التى ترجع إلى عهود بعيدة تسبق بقرون طويلة الفتح المقدونى الذى حمل فى طياته الإغريق بعاداتهم وقوانينهم .

---

(١) Jouguet: Mac. Imp., p. 338.

(٢) Bevan : p. 89.

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٢٩٠

(٤) Bevan : p. 166.

(٥) إبراهيم نصحى ، ص ص ١٦٤ و ١٦٥

وقد رأى البطالمة فى حكمتهم أن يتجنبوا بقدر ما تسمح أحوال الحكومة الجديدة المساس بما ألفه المصريون من العادات والقوانين[١] ، بل أخذوا على عاتقهم تدوين القوانين المصرية ونشرها[٢] . وفى نفس الوقت استنوا من القوانين ما يتفق وأفكار الإغريق ومن على شاكلتهم ، وذلك من أجل تنظيم العلاقات بين هؤلاء النزلاء الأجانب[٣] . وهكذا كان يطبق على المصريين قوانينهم التقليدية ، وعلى الإغريق قوانين إغريقية من وضع البطالمة . لكن استمرار وجود هاتين المجموعتين من القوانين جنباً إلى جنب أفضى إلى تأثير كل منهما فى الأخرى . وتبدو مظاهر الأثر الإغريقى فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام الخاصة بشئون الرقيق ، وحماية العقار من اعتداء الغير عليها ، وبعض الالتزامات وبعض شئون الميراث .

ونلمس الأثر الإغريقى أيضا فى بعض المسائل الخاصة بحقوق المرأة ، فقد كان القانون المصرى يخول للمصرية أن تتصرف فى نفسها وفيما تملك ، دون أى قيد أو شرط ، وذلك على خلاف المرأة الإغريقية . لكن المرأة المصرية لم تنعم طويلا بهذه الحرية فى عهد البطالمة ، فإنهم على الرغم من ادعائهم احترام التقاليد المصرية رأوا أن يساووا بين المرأة المصرية والمرأة الإغريقية ، وذلك دون شك لكى لا تتبرم الإغريقية وتضيق ذرعاً بحالتها ، إزاء ما كانت تنعم به المصرية من الحقوق . إذ يعزى إلى بداية عهد بطلميوس الرابع أمر ملكى يحظر على المرأة المصرية الزواج دون إذن وصى ، والتعاقد مع طرف ثالث دون إذن زوجها . وعلى مر الأيام أخذ المصريون عن الإغريق أحد أنواع عقود الزواج الشائعة بينهم باسم Syngraphai Synoikisiou ، ومعناها عقود المعاشرة ، وكانت تتضمن تفصيل التزامات الزوج الخاصة بالطلاق والوراثة[٤] .

ومن ناحية أخرى تأثر القانون الإغريقى بالقانون المصرى ، فقد أخذ الإغريق عن المصريين القواعد الخاصة بسيطرة الأبوين على أبنائهما ،

---

(١) Jouguet: op. cit., p. 313; Bevan, p. 157.

(٢) Taubenschlag: The Law of Greco-Roman Egypt in the Light of the Papyri, p. 2.

(٣) Rostovtzeff : Social and Economic, p. 324.

(٤) Laubenschlag: pp. 14-16.

وكذلك عقود الزواج الخاصة بإثبات كل المسائل المالية ، وذلك النوع من الزواج الشائع بين المصريين الذى يدعى Gamos agraphos أى زواج المتعة أو الزواج العرفى ، وأخذوا عنهم أيضاً « الرهن الضمانى » و « البيع الوفائى » وبعض أحكام القانون المصرى الخاصة بالالتزامات وببعض نواحى الميراث(١) .

وقد تكشف تأثير كل من القانون الإغريقى والمصرى فى الآخر عن ظهور مجموعة قوانين تتألف من عناصر مصرية وإغريقية ، وتطبق على العنصرين المصرى والإغريقى من السكان . ومع ذلك كانت لاتزال توجد قوانين إغريقية بحت لا تطبق إلا على الإغريق ، وأخرى مصرية بحت لا تطبق إلا على المصريين(٢) .

وبسبب افتقارنا إلى الأدلة لا نستطيع الكلام عن الأثر المتبادل فى العلوم والطب ، على عهد البطالمة ؛ لكن يمكننا الجزم بأن الأدب الإغريقى البطلمى كان أدبا إغريقياً بحتاً ، فإن علماء الأدب انصرفوا إلى تحقيق النصوص الإغريقية القديمة وترتيبها وتبويبها . أما الكتاب والشعراء، فقد انصرفوا إلى موضوعات لا تمت بصلة إلى الشعب المصرى أو البلاد المصرية ، حتى أن ثيوكريتوس عند ما كان يتغنى بوصف الطبيعة كان لا يصف مصر بل كوس وسيراكوز . وكان الشعراء الإغريق لا يعرفون عن مصر — حتى بعد أن عاشوا فيها — إلا ما قرأوه فى القصص والخرافات الإغريقية ، أو ما كتبه هرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم إلى شىء من المميزات المحلية إلا ما يستطيعون استخدامه فى إطراء الملك الذى يرعاهم(٣) . ومع ذلك فإن الكثير من الإغريق قد تعلموا اللغة المصرية ، وحسبنا الإشارة إلى الخطاب الذى أرسلته سيدة إغريقية إلى ابنها ، لتهنئه على تعلمه اللغة المصرية وتعيينه مدرساً خصوصياً ، عند أسرة طبيب مصرى للأمراض الباطنية(٤) .

---

(١) Taubenschlag: pp. 16-19.

(٢) Taubenschlag: pp. 19.

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٨٠٥ .

(٤) U.P.Z., 148; Préaux: in Rev. Belge, VIII, 1929, p. 767.

ولكى نقدر مدى انتشار الثقافة الإغريقية بين المصريين — على عهد البطالمة — يجب أن نشير إشارة سريعة إلى طبقاتهم ، وحال التعليم عندهم . كانت تأتى فى مقدمة المصريين ، قبل الفتح المقدونى ، طبقة الأرستقراطية بشقيها الدنيوى والدينى . أما الأرستقراطية الدنيوية ، فيبدو أنه قد قضى عليها قضاء مبرماً ، منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد(١) . أما الأرستقراطية الدينية ، فإن البطالمة كانوا أفطن من أن يحاولوا القضاء عليها ، وإن كان أوائلهم قد عملوا على تقليم أظافرها(٢) ، ومع ذلك كانت أهم الطبقات المصرية على عهد البطالمة . وكانت تلى الأرستقراطية الوطنية طبقة المحاربين ، وكانت محدودة العدد فى عهد البطالمة ، مهملة الشأن فى الشطر الأول منه ، ثم تحسنت حالها فى الشطر الثانى(٣) . وبعد هذه الطبقة كانت تجىء طبقة الموظفين ، وكانت تتألف بوجه عام من صغار الموظفين فى الإدارات المحلية . وكان يأتى فى مؤخرة الطبقات الإجتماعية ملايين المصريين الذين كان منهم الزراع والصناع والتجار والعمال ، وقد استغلهم البطالمة والإغريق أسوأ استغلال ، وفرضوا عليهم أثقل التبعات والالتزامات ، فلم يكن على شىء من اليسر من هذه الملايين إلا نفر قليل . وكان بعض أولئك النفر القليل زراعاً ناجحين ، واتاهم التوفيق مرتين : إحداهما فى أعمالهم الزراعية ، والأخرى فى الحصول على إذن من الحكومة باستصلاح بعض الأراضى وزرعها كروماً أو فاكهة ، وبذلك أصبحوا فى عداد أرباب أراضى الإمتلاك الخاص . أما البعض الآخر ، فكانوا أولئك الصناع الناجحين الذين لم تحتكر الحكومة صناعاتهم احتكاراً كليا ، وبذلك لم تغلق دونهم باب الكسب إغلاقاً كاملاً(٤) .

ونستخلص من الأدلة الطفيفة التى لدينا عن التعليم : — أولا ، أن الأمية كانت فاشية بين المصريين على عهد الفراعنة ، وبطبيعة الحال لم يعن البطالمة بنشر التعليم بينهم ، لأن نشر التعليم يساعد على تنبيه الوعى القومى ومطالبة الأفراد بحقوقهم ، ويؤدى حتما إلى رفع مستوى المعيشة ، وهو

---

(١) Jouguet: in B.I.F.A.O., XXX, p. 519, fn. 1.

(٢) Jouguet: in B.I.F.A.O., XXX, p. 515.

(٣) Cf. Rostovtzeff : op. cit., pp. 729-9.

(٤) إبراهيم نصحى ، ص ٧٥٨ — ٧٥٩

ما كان البطالمة يحرصون على تفاديه تحقيقاً لأهدافهم الأنانية[١] . يضاف إلى ذلك أنه إذا كانت الغالبية العظمى من المصريين لم تقبل على التعليم فى أزهى عصور حكامها الوطنيين ، عند ما لم تكن مرهقة بمثل ما أرهقت به فى عصر البطالمة ، فإننا نستبعد أنها وجهت أى عناية تذكر إلى التعليم ، عند ما كانت فريسة للبؤس على عهد طغاتها الأجانب . ونستخلص ثانيا ، أن المدارس المصرية على عهد الفراعنة كانت على الأقل منذ عهد الدولة الحديثة نوعين : — أحدهما المدارس الملحقة بمصالح الحكومة الرئيسية لتعليم الأولاد القراءة والكتابة وتدريبهم على أعمال الحكومة[٢] ؛ والنوع الآخر مدارس المعابد[٣] ، فقد كان لكل معبد مدرسته ومكتبته . ولا شك فى أن هذه المدارس كانت أعرق من المدارس الحكومية وأرقى منها ، لأن المنشآت الدينية أقدم عهداً من سائر المنشآت ، ولأن الكهنة كانوا أكثر الطبقات المصرية علماً ، ولأن الديانة كانت تلعب دوراً كبيراً فى حياة المصريين القدماء . ولا عجب إذن أن كانت أشهر مدارس مصر القديمة طراً مدرسة معبد هليوبوليس التى ذاع صيتها فى العالم القديم ، فحج إليها الكثير من فلاسفة الإغريق وكان أفلاطون من بينهم[٤] .

ولا يبعد أن المدارس الحكومية قد بقيت فى عهد البطالمة ، وبما أن اللغة الإغريقية قد أصبحت عندئذ اللغة الرسمية فى البلاد ، فلا شك فى أنه قد فرض تدريسها فى هذه المدارس ، وإن كنا نستبعد أنه قد أبطل تعليم اللغة المصرية فيها ، وذلك لأن الهيروغليفية والديموطيقية بقيتا مستعملتين عندئذ ، لا على جدران المعابد ونصب الموتى فحسب ، بل كذلك فى اللوائح والقوانين ، وخاصة ما كان منها متعلقاً بشئون الضرائب[٥] . فلا بد إذن من أنه قد فرض على طبقة الموظفين المصريين تعلم اللغة الإغريقية ، لكن الشك لا يخامرنا فى أن أغلب أولئك الموظفين كانوا لا يتذوقون شيئاً من الآداب الإغريقية ، وفى أن حظهم من الحضارة الإغريقية كان تافهاً . ولا بد

(١) راجع إبراهيم نصحى ، ص٦٤٨ وما بعدها

(٢) Erman-Ranke: Aegypten U. Aeg. Leben in Altertum, pp. 374 ff.

(٣) Dawson: The Age of the Gods, pp. 76-7, 112-3, 123, 132.

(٤) Encycl: Americana, vide Heliopolis.

(٥) Schubart : Einfuhrung,p.307.

من أن مدرسة الجيش كانت إحدى المدارس الحكومية ، ولا يبعد أن الإغريقية كانت تدرس فيها أيضاً ، وأن حظ أبناء هذه المدرسة من الثقافة والحضارة الإغريقية لم يختلف كثيراً عن حظ أبناء سائر المدارس الحكومية .

وإذا كان البطالمة لم يكلّوا مدارس المعابد برعايتهم ، وفقدت مدرسة هليوبوليس مكانتها القديمة إزاء عظمة جامعة الإسكندرية ، فلا شك فى أن المعابد المصرية ، أو على الأقل أكثرها ثراء ، احتفظت بمدارسها[١] . وإذا كانت الإغريقية قد اقتحمت طريقها إلى المدارس الحكومية ، فإننا نكاد نجزم بأن مدارس المعابد أوصدت دونها أبوابها ، وذلك لأن هذه المدارس كانت معاقل الثقافة المصرية ، واشتهرت باستمساكها بتقاليدها على مرّ العصور . ولعل مرد ذلك أن أقطاب هذه الثقافة كانوا رجال الدين ، وهم بطبيعتهم فئة محافظة ، كانت تعتبر أفرادها حراساً أوفياء على تراث الماضى . ولذلك لم تتغير تقريباً محتويات مكتبات المعابد فى عصر البطالمة — بل فى العصر الرومانى — عما كانت عليه من قبل[٢] . ولذلك أيضاً لا شك عندنا فى أن الثقافة المصرية لم تتأثر بوجه عام بالثقافة الإغريقية فى عصر البطالمة ، غير أننا لا نستبعد بل نرجح أن الكهنة النابهين أو الطامعين فى كسب الحظوة لدى البطالمة كانوا يستكملون مؤهلاتهم بتعلم الإغريقية على أيدى مدرسين خصوصيين . وقد أقبل كذلك على التعليم الإغريقى أفراد تلك الفئة القليلة من المصريين الذين واتاهم التوفيق فى نشاطهم الاقتصادى ، وأخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة إغريقية ، طمعاً فى الفوز بمركز يعادل مركز الإغريق . ولعل أبناء هذه الفئة كانوا يتعلمون الإغريقية على أيدى مدرسين خصوصيين ، أو فى المدارس الإغريقية المنتشرة فى طول البلاد وعرضها من أجل تعليم الإغريق .

ويتضح إذن مما مرّ بنا أنه لما كانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، وكان حظ أبناء المدارس الحكومية من الثقافة الإغريقية تافهاً ، وكان النابهون من الكهنة وكذلك الوصوليون منهم أو من الزراع والصناع

---

(١) Encycl. Brit., ed. 11, vide Heliopolis.

(٢) Thompson : Ancient Libraries, Berkeley, California, 1940, p. 2.

الناجحين قليلى العدد ، فإننا نستطيع أن ندرك كيف أن تغلغل الثقافة الإغريقية بين المصريين كان محدوداً .

ومما يجدر بالملاحظة أن انتشار الثقافة الإغريقية هذا الانتشار المحدود بين المصريين ، كان فى النصف الثانى من حكم البطالمة ؛ إذ أنه عند ما ضعف البطالمة ، أخذ أواخرهم — وكذلك الإغريق — يتقربون إلى المصريين ، مما أفضى إلى نتيجتين : — إحداهما انتشار التعليم الإغريقى والآداب الإغريقية بين نفر من المصريين اكتسبوا تبعاً لذلك مركزا يعادل مركز الإغريق ، والنتيجة الأخرى تعدد حالات التزاوج بين الإغريق والمصريين ، وانتشار الأسماء المختلطة بين المصريين المتأغرقين والإغريق المتمصرين . ولا بد من أنه قد صحب ذلك أيضاً أن استبدل أولئك المتأغرقون بثيابهم المصرية ثياباً إغريقية . لكن إذا كان من المسلم به أن أغلب المصريين لم يعرفوا شيئاً من اللغة الإغريقية وآدابها ، وأنهم بطبيعة الحال لم يتزاوجوا مع الإغريق ، فلا بد أيضاً من أنهم لم يتخذوا جميعاً أسماء إغريقية ولا ثياباً إغريقية . وعلى كل حال ، فإن الثياب لم تكن فى أى عصر دليلا على حضارة مرتديها .

وينهض طراز الفن البطلمى دليلا قوياً على لون حضارة كل من العنصرين المصرى والإغريقى ، ومدى تأثر أحدهما بالآخر . وبسبب ندرة ما وصل إلينا من التصوير البطلمى ، فإننا سنقصر ملاحظاتنا على فنى العمارة والنحت . إن الغالبية العظمى من بقايا هذين الفنين تشير إلى احتفاظ كل من الفن المصرى والفن الإغريقى بخصائصه القومية ، طوال عصر البطالمة . هذا وإن كانت الآثار تشير إلى محاولات طفيفة تجاه مزج طرز الفنين ، لكنها كانت محاولات غير ناجحة . ومن ثم كانت البقايا التى تدل عليها قليلة فى عددها متواضعة فى قيمتها الفنية ، بالنسبة إلى بقايا الفن المصرى الخالص . والفن الإغريقى الخالص . فقد كان كل من الفنين المصرى والإغريقى يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، ولذلك كان من العبث مزجهما والفوز بمنتجات خليقة بما عُرف عن المصريين والإغريق من الذوق الفنى الرفيع . فلا عجب إذن أنه طالما احتفظ المصريون والإغريق بمستوى ذوقهما الفنى ، احتفظ كل من الفن المصرى والفن الإغريقى بطابعه

الخاص ، وكانت محاولات المزج بين الفنين محدودة[١] . لكن عند ما تدهور هذا الذوق فى خلال العصر الرومانى كثرت هذه المحاولات ، وفى الوقت نفسه قلت المبتكرات الفنية الجديرة بهذا الاسم .

إن الإغريق عند ما انتقلوا إلى مصر حرصوا على أن يحضروا معهم تقاليدهم وعاداتهم ، واستمسكوا بأساليب حياتهم وحضارتهم التى كانوا يعتبرونها أرقى الحضارات طراً ، ولا سيما أنه قد توافرت لهم فى مدن مصر الإغريقية — وفى الجاليات الإغريقية المنتشرة بين جنبات الوادى خارج هذه المدن — كل الأسباب التى تساعدهم على أن يحيوا حياة إغريقية خالصة . وإذا كان كثير من الإغريق قد تأقلموا ، فإن غالبيتهم العظمى بقيت بوجه عام إغريقية .

ومن ناحية أخرى استمرت الكثرة العظمى من المصريين تعيش بوجه عام ، كما كان أجدادهم يعيشون . فقد استمسكوا هم أيضا بعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم ، واعتزوا بحضارتهم القديمة المجيدة التى لم يكن قد مضى عندئذ وقت طويل منذ كانت أعظم حضارة فى العالم القديم ، بل حتى عهد قريب كان الإغريق أنفسهم يحجون إلى مصر للاغتراف من مناهل تلك الحضارة . وإذا كنا لا نزال حتى اليوم نفاخر بحضارة أجدادنا على الرغم من تقادم عهدها ، فإننا لا ندهش إذا كان أجدادنا فى عصر البطالمة — أى منذ اثنين وعشرين قرناً تقريبا — يزهون ويفاخرون ويتمسكون بحضارة أجدادهم .

وبعد فإننا نستطيع أن نستخلص مما أوردنا أن قيام حضارتين مجيدتين — كالحضارة المصرية والحضارة الإغريقية جنباً إلى جنب — كان طبيعياً أن يؤدى إلى التقائهما فى بعض النواحى . لكن استمساك كل من أهل هاتين الحضارتين بحضارتهم حال دون اقترابهما ، وامتزاجهما امتزاجاً كليا بحيث تتغلّب إحداهما على الأخرى . حقاً كانت الحضارة الإغريقية أرقى حضارة فى العالم يومئذ ، بل كانت حضارة حكام مصر ؛ لكن الحضارة المصرية كانت حضارة عريقة ، وحضارة أمة أثبتت فى كل أدوار تاريخها الطويل قوة حيويتها وشدة استمساكها بتقاليدها ، فلم يفلح غازٍ من غزاتها العديدين

(١) Noshy : The Arts in Ptolemaic Egypt, p. 142.

(٢)

فى أن يفرض عليها طابعه الخاص . ويجب ألا يغرب عن البال أنه إذا كان فى وسع أى حاكم قوى أن يدخل فى دولته ما يحلو له من نظم الحكم والقوانين والإصلاحات الاقتصادية ، وأن يعلم جنوده ما يشاء من فنون الحرب ، وأن يجعل لغة بعينها اللغة الرسمية فى البلاد ، فإن هذا الحاكم مهما توافر له من السلطة المطلقة لا يستطيع أن يفرض حضارة جديدة على رعاياه ، ولا سيما إذا كانت لهم حضارة قومية عريقة قوامها معتقدات دينية متغلغلة فى نفوسهم حتى الأعماق .

إبراهيم نصحى